الحرف والفنون الشعبية بمنطقة توات
دراسة وتثمين

د. ميلود بلحاج
دكتوراه تاريخ تخصص فنون شعبية
مستشارتربوي رئيس
ولاية النعامة - الجزائر

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه ضمن مواضيع التراث والثقافة والموروث الجزائري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية التابعة لجامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان.

الباحث: بلحاج ميلود
إشراف: أ.د. معروف بالحاج
التخصص: التاريخ والتراث
التاريخ: يوليو ٢٠١٩
لجنة المناقشة: أ.د. فايزة مهتاري/ د. سي عبد القادر عمر/ د. محمد الزين. د. عبد الله ثاني قدور/ د. عبد الرحيم لعمى.

يتضمن هذا البحث موجزًا لتاريخ إقليم توات وأهم القبائل التي رحلت واستقرت فيه، وأهم النشاطات الاقتصادية والحرف التقليدية التي مارستها الساكنة بتنوع أصولها، كما تضمن أيضًا الأغاني والرقصات الشعبية، وكذا التراث الثقافي المتمثل في الأمثال الشعبية، والعديد من صنوف الفنون التي يزخر بها الإقليم.

كلمات مفتاحية:
قوافل؛ توات؛ الحرف والفنون؛ اليهود؛ المغيلي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.273498

مُقَدِّمَةُ

ينشط الباحث مع مجموعة من الطلبة والباحثين ضمن معهد الثقافة الشعبية الذي أسس، مع معهدي اللغة العربية وآدابها ومعهد اللغات الأجنبية بعد تحويل المركز الجامعي الذي تم تدشينه سنة ١٩٧٤، وتوسيعه الى جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان بصدور مرسوم تنفيذي رقم ٩٥/٢٠٥، المؤرخ في ٠٥/٠٨/١٩٩٥، والغاية من ذلك إضافة تخصصات جديدة مثل كل جامعات العالم فالتخصصات تتزايد، وكذا الفروع والكليات فكان مشروع معهد الثقافة الشعبية للحفاظ على التراث والموروث الشعبي والتراث اللامادي، وقد تخرج منه عشرات الباحثين والباحثات في شتى مناحي الفنون الشعبية ليعرف المعهد ونشاطه التجميد لأسباب غير معروفة وتحويل آخر دفعة من الباحثين لإكمال الدكتوراة في قسم التاريخ في نفس الجامعة، وقد اختار الطالب الباحث عنوان: الحرف والفنون الشعبية بمنطقة توات تحت إشراف الأستاذ الدكتور معروف بالحاج وتمت مناقشتها من طرف السادة الدكاترة فايزة مهتاري وكذا سي عبد القادر عمر كلاهما من جامعة تلمسان إضافة لمحمد الزين من جامعة سيدي بلعباس وعبد الله ثاني قدور من جامعة وهران وعبد الرحيم لعمى من جامعة المدية وذلك يوم ٧ جويلية ٢٠١٩، تهدف هذه الأطروحة الى التعريف بالإقليم الصحراوي-توات- الممتد عبر الجنوب الغربي الجزائري خاصة في العصر الوسيط ، وذلك التجانس السكاني والديني الذي سمح بقيام دولة ذات تنظيم قبلي وقضائي بمقاطعات ثلاثة (توات الوسطى-تيكورارين-تيديكلت)، فتمازج وتناسب البربر والعرب والأفارقة شجع على الاستقرار الاجتماعي

والسياسي لولا السجال الذي نشأ بين الشيخ عبد الكريم المغيلي وساكنة اليهود في توات وقصور أخرى.

مجتمع الواحات هي الساكنة التي تستقر في أعماق الصحراء حيث تنشأ القصور الطينية والقصبات والواحات حيث يتواجد الماء ولو بصورة غير وفيرة، فتنشأ واحات النخيل وزراعة الفواكه والمزروعات التي تتناسب والمناخ وتتأقلم معه، ومع مرور الوقت بدأت المدن والقصور في الظهور وتشكلت العاصمة تمنطيط (العاصمة للإقليم) بسرعة وزاد بناءها حيث سارعت كل قبيلة ببناء قصباتها وأحيائها، فبنى العرب قصبتهم المعروفة بأولاد محمد نسبة إليهم ووضعوا المنازل واستصلحوا البساتين، بنى اليهود القصبات ودورهم وتعالوا في بنائها ودفعوا الكثير من الذهب- كعادتهم-لشراء ذمم حكام توات، هذا الصراع الذي انتهى بإسلام قبيلتي أولاد إهمالي وأولاد نسلام وفرار القبائل الأخرى اليهودية.

الدراسات السابقة للموضوع

تنوعت الدراسات بين عربية وغربية والتناول الكبير قد عرف عند الغرب أكثر منه عند المسلمين، نظرًا لبعد المنطقة عن بؤر الصراع في العالم العربي والإسلامي، وإن صح القول لما شكلته المنطقة من ملاذ آمن للمضطهدين عند قيام وسقوط الدول الإسلامية، أول من كتبوا عن الإقليم ابن خلدون في معرض حديثه عن طرق القوافل التجارية، والتاجر الجنوي "مالفنت" الذي وصف في رسالة كتبها في ١٤٤٧م، حيث كان مقيما بالجنوب الغربي من مدينة تمنطيط، أما المؤرخين المحليين أي الكتابات المحلية المتمثلة في المخطوطات التي انتشرت عبر كامل الخزائن العامة والخاصة أشهرهم على الإطلاق القاضي الفقيه عبد الكريم التمنطيطي صاحب كتاب "تقاييد في تاريخ توات والفقيه محمد بن عبد الكريم البكراوي صاحب المخطوط "درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام" والقاضي محمد بن عمر الجعفري مؤلف مخطوط "نقل الرواة من أبدع قصور توات"، "أما البسيط في أخبار تمنطيط" مخطوط فريد استعنت واستفدت منه أيما إفادة إذ تعرض للتحقيق من طرف المؤلف د. فرج محمود فرج كرسالة تخرج في الجزائر، حيث تعرض المؤلف ابن بابا حيدة التواتي لقصور تمنطيط العاصمة خاصة بالتفصيل وبعضا من نتف أحوال الإقليم التواتي في عصره، أما الرسائل الجامعية فهي كثيرة وحسب التي استطعنا الحصول عليها واطلعنا على محاورها الكبرى نستطيع القول تناولت دراسة الإقليم من زوايا اربع أولها الجانب التاريخي: حيث ركزت على القبائل التي فرت أو تلك التي هاجرت لظروف ما للمنطقة كلها إما طلبًا للأمن أو العيش الكريم، لأن المنطقة محور الارتحال كانت تعيش ظروفا متشابهة وساكنة واحدة (عرب-بربر-يهود - أفارقة)، والأمر الذي لا يخلوا منه أي مقال أو كتاب ذلك النزاع المرير الذي بدد السكون الذي عرفه الإقليم إلا وهو نزاع المغيلي مع اليهود والذي انتهى بإسلام قبيلتين منهم وهجرة وفرار الباقي من القبائل، وقد حفلت بعض كتب الفقه به* لأخذه طابعًا دينيًا استلزم الفتيا ورأي الدين فيه (بقاء اليهود من عدمه).

وبعض الدراسات تناولت الجانب الأثري العمراني كون المادة الخام للبناء في العمارة الطينية الصحراوية يعتمد على الطين وجذوع النخل، وتضمن الأمر العمائر الحربية (من قصبات وحصون) والدينية (مساجد وأضرحة وغيرها). إضافة لدراسات تضمنت الجانب الفقهي والنوازل الفقهية ومسائل القضاء التي تم التقاضي فيها من خلال محاضر الأحكام التي وجدت في مخطوطات بعض قضاة توات. أما آخر الدراسات تمحورت حول الحرف والفنون والصنائع وخطوط القوافل التجارية، وكذا الفنون الشعبية من غناء ورقصات ودواوين الشعر بالعربية واللهجة الزناتية الأمازيغية.

فرضيات الدراسة وإشكالياتها

فرضيات البحث هي تساؤلات حقيقية الغرض منها الوصول الى دراسات شاملة وكاملة تعطي الموضوع المدروس حقه من البحث والتحري، والاعتماد على المصادر والمراجع ومحاولة التحليل والقراءة بين السطور، مع الاتسام بالجدية، ففرضيات البحث ارتكزت على أسئلة رئيسة وهي القبائل التي هاجرت واستقرت بالمنطقة، وكذا طرق تدبير المياه ونمط الحياة الشاقة وكيف تعامل الإنسان التواتي معها، ومصادر وموارد العيش وتدبير التجارة وطرق القوافل التجارية وأهم الحرف التقليدية والغناء والأمثلة الشعبية.

أسباب اختيار الموضوع

أما أسباب اختياري للموضوع يقوم على أسباب ذاتية وموضوعية، أما الأسباب الذاتية فتتمثل في رغبة ملحة لتسليط الضوء على هذه المنطقة (منطقة توات)، التي مكثت فيها طويلا كمدرس، وتعرفت على الكثير من الناس من ضمنهم الحرفيون هؤلاء الذين أعجبت كثيرا بإبداعاتهم، وزاد من إعجابي بهم أن هذه

المواهب لم يدرسوها ي مدارس أو معاهد، بل ورثوها عن أجدادهم، فتلك الرسومات المتقنة المنقوشة على الحلي جعلني أختار الاقتراب منهم وتسجيل تجاربهم وخطوات عملهم وإبداعهم. أما الأسباب الموضوعية فتتعلق بقلة توجه الباحثين لهذا النوع من الدراسات الخاصة في الحرف والمهن التقليدية، ومن هنا كانت البحوث في هذا المجال قليلة جدًا. والأمر الآخر محاولة مضافة لإعادة الاعتبار لتراثنا وقيمنا ومساهمة متواضعة في تدوينه.

محتويات الأطروحة

بدأنا هذا البحث بمقدمة تعرضنا فيها الى أهمية الموضوع ودواعي اختياره وكذا أهمية الصناعات التقليدية واهتمام الدولة بالمحافظة عليها وإحيائها ثم تلاه مدخل تمهيدي في التعريف بالحرفة والصناعة وكذا الفنون الشعبية وخصائصها وأشكالها، أما الفصل الأول: فقد كان من الضروري لشساعة المكان وتعدد الأعراق من مقدمة عن موقع المكان الجغرافي والمناخ والتضاريس، أما التركيبة البشرية فمعرفة الساكنة يهم القارئ والباحث في معرفة أصولهم وأعراقهم لارتباطه بعاداتهم وتقاليدهم فالتنوع البشري يقابله تنوع حرفي وتقاليد وعادات مختلفة تثري المشهد الفني والتراثي.

أما الفصل الثاني فهو للإطار التاريخي لإقليم توات تضمن أوضاع الإقليم قبل وبعد الإسلام وهجرة هذه القبائل واستقرارها بالصحراء، وكذا الصراع التاريخي الذي اشتهر به الإقليم والذي لا يمكن لأي باحث عن تاريخ المنطقة أن يتجاهله، فبه كان للمنطقة هذه الشهرة في كتب التاريخ، وحملة السعديين على توات وتيكورارين والأضرار التي خلفتها الحملة على قورارة.

والباب الثاني ففصله الأول خصص للحرف التقليدية المنتشرة في المنطقة: كالمنسوجات من زرابي وألبسة فزربية فاتيس بتيميمون من أشهر الزرابي والمطلوبة وطنيا ودوليا وهي احدى مقتنيات السواح الذين يفدون إلى المنطقة وخاصة في موسم المولد، أما زربية الدكالي فهي من أقدم النماذج التراثية الموجودة ، كانت تسوق في تيديكلت فيما مضى وقد انحسر زمانها كما يقول الحرفيون، أما الألبسة التقليدية فقد درسنا منها اللباس التواتي والتارقي من بازانات وملاحف وعباءات، أما الفصل الثاني من هذا الباب فقد تعرضنا للفخار التقليدي والفخار الأسود الذي تتميز به عاصمة الإقليم وهو فخار للزينة بالمقام الأول، ثم نوع آخر من الصناعات التقليدية في الفصل الثالث وهو صناعة الحلي في توات الوسطى وكذلك تيديكلت عند الطوارق، أما الصناعة الجلدية والسعفية فقد اختصت بالسعفيات عموم الإقليم أما الجلود فقد نالت السبق والشهرة فيها منطقة آولف خصوصًا وتيديكلت عمومًا، مختلف المنتجات كالنعال والحقائب وغيرها، أما الباب الثالث والأخير من البحث فكان مختلف الفنون التي عرفها الإقليم من رقصات وأغاني وأمثال شعبية وفنون الطبخ التواتي التقليدي.

وقد اعتمدنا في الفصل الأول والثاني والثالث من الباب الأول منهجا تاريخيا اقتضته الدراسة من أجل التعريف بالمنطقة والحوادث التي مرت بها، أما الباب الثاني والثالث منهجا وصفيا اقتضته ضرورة البحث كذلك.

تضمنت هذه الدراسة تحليلاً لاهم الأسئلة ومحاورها وتحليل لعناصر الاستجواب، والتي شملت عشرون حرفيا من كل الصناعات المدروسة. ومع كل هذا الجهد نعتبر هذا البحث محاولة متواضعة إذا ما أضيفت إلى الرسائل الأخرى التي وصلت إليها أيدينا وكانت معينا لنا في الدراسة، إن هذا الجهد غير كاف في الإلمام بكل شيء في منطقة توات، نتمنى مزيدًا من تسليط الضوء على تراثنا الكبير الذي يحتاج إلى رعاية كبيرة للمحافظة عليه وتنوير الناشئة بتراث أجدادنا والله تعالى المعين في ذلك.

نتائج البحث

من خلال هذه الدراسة الميدانية والنظرية لمجمل الحرف التقليدية الممارسة في إقليم توات والبنية الجغرافية والبشرية لتوات خلصنا الى جملة من النتائج الأخرى وهي:

أولاً: أن انتشار الأمن والأمان وبعد الإقليم عن بؤر التوتر في العالم الإسلامي في ذلك الزمان، ساهم الى حد كبير في هجرة الكثير من الأعراق والديانات وخاصة اليهود، الذين عرفوا كعادتهم اقتناص واستغلال الفرص، فسيطروا على طرق القوافل التجارية، وتمويل الحرفيين بالذهب والفضة، نظرًا لتحول طرق القوافل الى هذه الواحات الآمنة، هروبًا من فتك قطاع الطرق، في سجلماسة ودرعة وتافيلالت، فنشطت التجارة والمقايضة والحرف، وكثير من رأس المال الضخم ، الذي أدارته بكفاءة كبيرة وعالية وسيطرت عليه جالية اليهود، ومن أهم الأسواق الكبيرة كما ذكر الوزان سوق تيكورارين، كانت تروج فيه ريش النعام والحنة والتمور والطباق والبرانس والقفاف والغلال والملح والجير والشمة التواتية الشهيرة.

ثانيًا: ساهم التنوع العرقي والطبقي في ثراء المشهد الحرفي والثقافي والغنائي، واقتصار جل الحرف التقليدية على الطبقات الفقيرة والمتوسطة، وكذلك اشتغال الغالبية كما الحرفيين بالفلاحة وزراعة الخضروات والنخيل.

ثالثًا: كل الخامات التي استعملها الإنسان التواتي، استمدت من الطبيعة والموارد الطبيعية التي تواجدت ببيئته اللهم إلا ما تعلق منها بالفضة ومادة الصوف، فهذه الأخيرة يكتنف إنتاجها وتحصيلها نقص شديد ويعوض بجلبه من مناطق مجاورة منذ القديم، أما الفضة لصناعة الحلي بمختلف أنواعها من دول إفريقية مجاورة منذ تجارة القوافل حيث كانت تقايض بمواد أخرى مفقودة في أسواق هذه الدول.

رابعًا: تعايش سلمي وأخوي بين مختلف طبقات المجتمع رغم الحروب التي سادت فيما مضى في الإقليم، ووجود روح التعاون والتآلف، ويظهر ذلك جليا في أعمال صيانة واستصلاح الفقاقير والأراضي الفلاحية، وذلك راجع لتأثير علماء المنطقة والدين الإسلامي على أبناء المنطقة.

خامسًا: لقد ساهمت الدولة الجزائرية ممثلة في وزارة السياحة والصناعات التقليدية، ومولت ودعمت قطاع الصناعات التقليدية لإنه قطاع منتج ويساهم في جلب رؤوس الأموال الصعبة، وبنت للحرفيين مقرات للعمل شكلت ما نسبته ٤١% من المحلات التي تم توزيعها على الحرفيين الشباب، لارتباط قطاع الحرف التقليدية بقطاع السياحة، مع توفر ما يقارب ثلاثون جمعية تنتشر عبر كامل الإقليم ودوائره وتساهم في صيانة وحفظ هذا التراث من الضياع وكلها تستفيد من دعم الدولة، هذا إضافة الى مراكز التكوين المهني التي أضافت تخصصات لتعليم مختلف الحرف، ووفقًا لإحصائية مديرية السياحة والصناعات التقليدية فقد استفادت ولاية أدرار من ٤٠ مشروعا لدعم السياحة والحرفيين لعام ٢٠٠٣ وكذلك من ٥٥ مشروعًا سنة ٢٠٠٤ ومن ٩٠ مشروعاً سنة ٢٠٠٥، وكل هذا لدعم وترقية هذا القطاع الهام.

سادسًا: رغم الوسائل البسيطة وصعوبة المناخ وقساوة العيش في الصحراء، إلا أن الأنامل التي صنعت تلك الحلي الفضية تدهش الوافد والمواطن من حيث البراعة والدقة والإبداع لدى فنانيها رغم أنهم لم يتلقوا تكوينا فيها وفي صناعتها، بل هي من بنات أفكارهم.

سابعًا: معظم الذين زرناهم أو حاورناهم كلهم عزيمة وإصرار، على المحافظة على إرث الأجداد والمساهمة في تطويره، رغم تناقص العائد المالي من ناتج المشغولات الحرفية، نتيجة تناقص السياحة خاصة في سنوات الجمر، إلا أنهم يأملون الكثير ويتمنون من الدولة الدعم والتشجيع.

ثامنًا: لم تتوان الدولة خاصةً في توفير الدعم لهذا القطاع في أدرار، وهذا ملاحظ وملموس في المنطقة فتوفر الخامات الطبيعية وكذلك اليد العاملة الحرفية جعل المسؤولين المحليين، ينجزون على أرض الواقع الكثير من المراكز المهنية المتخصصة في تدريب الكادر الفني والمهني لصيانة ودعم والمحافظة على هذه الحرف، وكذلك توفير مناصب العمل من خلال الحركية الاقتصادية والثروة التي يولدها هذا القطاع الهام، والذي يعتبر موردًا هامًا وطنيًا في دولتي المغرب وتونس المجاورتين. فإذا تكاثف القطاعين السياحي والتقليدي في خوض غمار الاستثمار، ووجد الدعم من الدولة وأجهزتها وكذلك العزيمة القوية من الحرفيين يمكن أن يشكل مصدرًا هامًا للدخل القومي.

خاتمة

وفي آخر هذا العرض نتمنى أن نكون قد سلطنا الضوء على محاور هذه الأطروحة بعرضنا نبذة من التاريخ السياسي والتراث الحرفي والفني الذي زخرت به منطقة توات، والذي يحتاج للكثير من الدراسات لتفيه حقه من البحث والدراسة.